الدوس هكسلي وتربية الفرد

بقلم جعفر آل ياسين

●

التجربة الانسانية النامية لن تنهض إلا في ظل الشعور التحرر والانطلاق المواكب للحياة المتصيّرة في آفاقها الشاسعة الزاخرة بشتى ألوان المعارف الانسانية التي تشاد عليها دعائم كل رع من فروعها الاجتماعية: في الرقي المدني والادبي على السواء . .

وإن هذا « التحرر » هو الميزان الذي لا ترجح فيه كفة لى اخرى بل توزن بوساطته الحضارات البشرية ومبتدعاتها في ضامير تجاريبها المطورة (لصفة) الحياة بمدلولها العام الشامل . .

ولا شك ان انحصار الفكر الانساني بدائرة معينة واحدة، تقيّد العقل بنظرية سائدة ، لن يعودا على الحضارة البشرية إلا سوأ النتاج واضعف الايمان بالتطور الخالق .

ومن هنا فان «المشكلة» القائمة لن تتخذ لها حلا ثابتاً معيناً، علاجاً خاصاً ، لأنها تنهض على تشعب واسع المدى ، بعيد لآفاق ، عميق الجذور . . فلا بد أن يكون العلاج — اذن — نشعباً متبايناً في ضروبه المختلفة . . ولا يصح — بوجه من وجوه — ان تكون « الاداة » مبررة للغاية التي تهدفها لان الوسيلة الطيبة لن تنتج إلا غاية طيبة وبالعكس . . »

وعلى هذا فسنحصر الحديث عن « هكسلي وتربية الفرد » قتفين افكاره الاساسية في كتابه القيم « الوسائل والغايات » يث اقام المجتمع الذي يريد على سبيل لاحب دون ان يمس يان الفرد بقواه الروحية على جانب تتفق لديه — على تباينها — صوفية » إيكارت و « اجتماعية » المدرسة الوضعية الحاضرة .

* * *

يعتقد الدوس هكسلي Alddus Huxley ان الوقت قدحان لاستفسار عن الطريقة الصالحة لسلوكها في التربية :

فالفرد — في واقعه — ليس يقتصر عجزه عن التأثر باضيه حسب ، بل بحاضره ومستقبله ، وما يستتبع هذا الحاضر من لوك اجتماعي يقرره القابل من حياته . . فهو في سنيه الاولى — اصة في فترة الحضانة الاجتماعية — يتحسس بنوع من الحرية فعه الى تقليد الآخرين والحذو حذوهم كإمعة تحاكي السامع الناظر في قوله وعمله . .

وان توجيه هذه « الحرية » توجيهاً سليماً ينمّي فيها القدرة على « التصرف » بالمواقف المختلفة هو من اوليات العمل المنتج في التربيـة الحديثة ، ولذلك وجب الحذر كل الحذر من « الاستقطاب » الذي يؤدي إما الى منح الفرد الحرية الكاملة المدعمة بالمسؤولية ، وإما بالعكس ، الى إلزامه بالقديم الآبد إلزاماً يفقد معه شخصيته وسماته التي تقرر إتجاهاته وميوله وذاتيته . .

يقول برتراند رسل : « لقد ارتقت المدارس كثيراً في القرن الحاضر ، وبخاصة في البلدان الديمقراطية ، امـا في الدول التي قامت فيها الدكتاتورية العسكرية فقد تأخرت كثيراً وعادت الى النظام الصارم في التربية والى اخضاع الطلبة لمعلميهم إخضاعاً مشيناً ، كما انها اتبعت في التعليم الطرق السلبية دون الايجابية » .

وتتحدث الدكتورة منتسوري Montessori ايضاً فتقول : « إن الطفل الذي لا يتعلم قط ان يعمل وحده ، وان يوجه اعماله بنفسه ، وان يتحكم في إرادته ، يصبح سهل الانقياد ، معتمداً على غيره في كل الامور إذ هو راشد . . إن الطفل الذي لا يلقى في المدرسة تشجيعاً وانما يتلقى الاهانة تلو الاهانة ينشأ على عدم الثقة بنفسه ، وعلى الخوف الذي يسمى خجلا ، والذي يتخذ فيما بعد صورة الخضوع والجبن . . »

ولقد شجعت الدول الديمقراطية تعميم التعليم هادفة الى فكرة « التحرر » ولكنـه — اي التعليم — لم يؤد ما كان يرجي منه نظراً لان « الوسائل » التي استعملت لتهيب الفرد على الحرية في التفكير والعمل لم تكن « نقية » طيبة فأدت — في النهاية — الى « غايات » مشوبة بكثير من الاكدار التي لاتزال ماثله في عقل المجتمع الى يوم الناس . .

ومن نافلة القول ان نؤكد هنا خطورة التربية الناقصة وما تؤدي اليه من مساوىء لا تحمد عقباها في الملايين من الناس : فتفسد سلوكهم وتحـط من قيمهم الروحية والوضعية .

وينوّه هكسلي — على سبيل الارشاد — بما للعب من أثر في تربية الخلق الفردي ، ولكنه يتوقف على « التوجيه » ، فقد يستعمل كأداة لتشجيع « الاعتداء على الآخرين ، او حب السيطرة الذي يؤدي الى الحرب عند شموله افراد المجتمع القائمين على الامر . . وقد يكون العكس ، فيستعمل اداة « للمحبة » والايثار والتسلية . . ويرجع ذلك — بالاضافة إلى التوجيـه — إلى « نوعية » الافراد ، فهم انماط مختلفة في الامزجة والاذواق — على ما بينهم من القدر الجامع في الاتجاهات النفسانية — مما

يؤدي إلى نبذ الاكتفاء بصفة واحدة من التوجيه المكتسب ، والعمل على استيفاء حاجات هذه الانماط المتباينة مهما امكن.. مع العلم ان هذا «القدر» المشترك يجب توجيهه نحو تفهم «الحكم الذاتي» وقيمته في المجتمع والمدرسة والبيت ..

ولا يعني هكسلي بالحكم الذاتي سوى القدرة على إدراك قيمة «التعاون» بين الافراد وتفهمه تفهماً لا يقوم على الاستغلال والمصلحية ، بل ينهض على الخلق المستقيم الذي يحاوله المصلح في دعوته ، والاستاذ في مدرسته ..

ومن هنا فليس الفساد في التربية الخلقية فحسب ، بل في التربية العقلية ايضاً ، التي لم تهيء لنا — حتى الساعة — افراداً يفهمون « المحبة » و «التعاون » كما تفهمها المصلحون والانبياء .

فنحن نرى ان التعليم اليوم يسلك سبيلين متقابلين هما : « التعليم العلمي » و « التعليم الفني » .. فالاول يعنى بتنمية المدركات المعنوية والحسية عند الفرد لتتسنى له القدرة على التحليل والتركيب .. والثاني يعنى « بالآلية » التي تساعد الفرد على إتقان حرفة ما. وقد لوحظ ان «الاختيار» في الانخراط في سلك احد هذين النوعين يشوبه كثير من النقص نظراً لان الانماط البشرية لا تتفق جميعها في « القدرات » المتقبلة لنوع معين من التصنيف دون آخر ، فيحصل — عند ذاك — ان تذهب جهود مضنية هباء .. فغالباً ما تخرج المعاهد بعد سنين : « ببغاوات يكررون عبارات بنصها لا يفهمونها حق الفهم ، وإن فهموها فهم : إما متخصصون يعرفون كل شيء عن موضوع ما ولا يجدون لذة في غيره ، أو رجال فكر يعرفون كل شيء من الناحية النظرية ، ولكنهم عاجزون في شؤون الحياة العامة »..

فالعلاج — في هذه المرحلة — يستلزم انخراط كل « نمط » منهم إلى وجهته التي يفضل ، وإيجاد « الفرص » المواتية للتزوّد من العلم والفن حسب الميول والقابليات . ولا احسب ان الدول القائمة على تنظيم التعليم في بلادها ، بعيدة عن غايات هذه الدعوى ، ومدى الافادة منها حين التزام جانب التجربة والتطبيق.

على ان يعمل الرجال القوّامون على تنقية الطريقتين «العلمية» و « الفنية » مما يلحق بهما من النواقص التي تحد من حريتهما واستكمالهما ، فيحاولوا — جهد إمكانهم — ان يجعلوا من الطريقتين سبيلاً يتخذ من «الانسانية» هدفاً له ، ومن «القيم» و «التجربة» و «الارادة» حقيقة يستقر عليها كيانه الاجتماعي والخلقي .

ويستطرد هكسلي فيذكر محاولة الدكتور « مورغان » Morgan بالتزامه جانب الانسانية في التربية ، وذلك حين ارتأى لكلية انطاكية Antioch ان يقضي تلميذها : « فترة في الدرس تعقبها فترة عمل في المصنع والمكتب والمزرعة وفي السجن وفي مستشفيات المجاذيب ..! » ليستأنس الفرد بالناحيتين : العملية والنظرية .. ويضيف الدوس إلى رأي مورغان دعوته إلى شمول هذا للاستاذ والتلميذ على السواء .

ويؤكد — الى جانب ذاك — ما للموسيقى والشعر والتمثيل من اثر في توجيه العواطف وللموسيقى — على الخصوص — في هذا المجال اثر يغلب على بقية الفنون الاخرى ، نظراً لما تمتاز به من « التحرر » ، و « النظام » .

ثم يدعو اخيراً الى نبذ الادب الرخيص الذي يتّجر بالقَصص التافه ، والقول البذيء ، والحكاية الكاذبة ، ليغذي الحقد والنميمة والشراهة عند بعض الناس ..

فالادب ليس ذاك .. بل هو ما يحرك في النفس « قيم الاحتذاء للنموذج الصالح ، فهو سبيل اخلاقي يرتكز على التجربة الانسانية المتحررة ، وعلى الشعور بالعمق والمشاركة الوجدانية ، مع تجنّب « الايحاء » الذي تستعمله الدعايات في التضليل والاستهواء والاغراء .

ومن الواجب علينا — في هذه المرحلة ايضاً — أن نشجع في الفرد روح « النقد » النزيه ، ليتفهم ما يحيط به عن تدبّر وإدراك وإحساس .. مع تدريبه على كيفية معرفة معاني « الكلمات » التي تُتلاك بالافواه يومياً دون ان تحدد تحديداً علمياً مشخّصاً .. ان فهم ما وراء « اللفظ » هو ما يحقق لنا القيم المعنوية للحياة لانها تساعدنا — على تجنب المغالاة والتعصب والتفريط في امور قد لا نشارك الداعين اليها .

فالدعاوات التي يستعملها — مثلاً — أصحاب الشركات او الدول — في فترة من حالات الايحاء — تقوم اول ما تقوم على استغلال الفرص لتحكيم وتدعيم القاعدة التي تدعو اليها ، أو الترغيب في النتاج الذي تود عرضه .

إن قيمة « النقد » وتحديد معنى « اللفظ » هما في الواقع من أهم المشاكل في حضارة هذا العصر .

ونحن نأمل ان يكون لما قرره هكسلي اثره في التطبيقات الحديثة للتربية مما يؤدي بنا الى حياةٍ افضل ومجتمع صالح في روحيته ومعنويته !

بغداد

جعفر آل ياسين